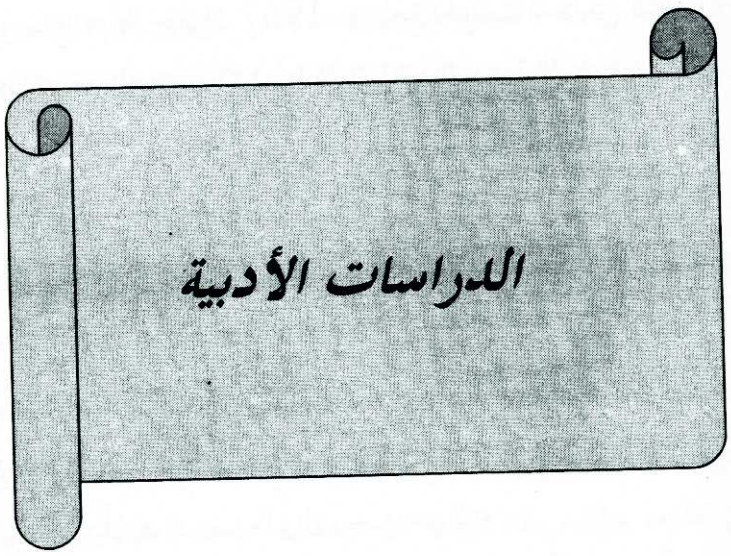
الدراسات الأدبية

دلالة العنوان في ديوان "أشهد أنني رأيت "

(للشاعر أحمد حمدي)

أ . مشري بن خليفة
جامعة ورقلة
الجزائر

يعد الشاعر أحمد حمدي من أبرز شعراء السبعينيات ، واستطاع أن يؤسس نصا شعريا في حينه يعبر عن رؤيا حداثية ، كانت تنطلق من موقف يرفض الراهن الشعري ، ويرسخ رؤية مغايرة للرؤية الماضوية التي كانت تسم النص الشعري الجزائري في مرحلة الستينيات بسمة التقليدية ، ولا شك أن الشاعر أحمد حمدي هو نتاج هزيمة حزيران 1967، ونتيجة الخطاب السياسي المتنامي حينئذ ، والذي كان يدعو إلى الاشتراكية والمساواة والعدالة ، ومن ثم فعندما نقرأ نص هذه المرحلة ينبغي أن ننطلق من واقعه ورؤيته وإيدولوجيته وخصائصه التعبيرية .

وعليه فالمتمعن في المسيرة الشعرية للشاعر أحمد حمدي يجد أن هذا المسار الشعري مرتبط أساسا بتحولات الواقع الجزائري وتحولات رؤيته وتجربته الشعرية من مرحلة إلى أخرى .

فابتداء بديوانه "انفجارات "[1] إلى ديوانه " قائمة المغضوب عليهم " [2]، نجد أن القصيدة الحديثة في شعره كانت في مرحلة التأسيس النصي ، إذ أن البنية التعبيرية في ديوانيه تشير بأن هناك نصا ما زال يبحث عن ذاته .

فهو متأثر بالتغيير الشعري الحاصل في الشعر العربي الحديث ، وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بإيديولوجيا الخطاب السياسي حينئذ ، وهذه المرحلة يمكننا أن نصفها بالخط الثوري ، حيث تصدر كثير من قصائد الديوانين عن حس جمعي ، ونلحظ من حيث التقنيات أن الشاعر حمدي انتقل من الوصف إلى التركيب ،ومن الصورة الجزئية إلى الصورة الشعرية الأكثر عمقا .

وفي ديوانه " تحرير ما لا يحرر" [3] يعمق تجربته الشعرية ، ويحرر نصه من نص الإيديولوجيا ، فهو يهتم بالصنعة في شعره ويستخدم في نصه لغة حديثة ، وينتقد التحولات التي حصلت في مرحلة الثمانينيات ، والانفتاح الاقتصادي المتوحش .

إن نص أحمد حمدي الشعري يتطور باستمرار ، وهو يبحث دائما عن نص له خصوصية ، لذا يأتي ديوانه" أشهد أنني رأيت " [4] معبرا عن الراهن الذي تعيشه الجزائر ، ومن ثم كان هذا الديوان شهادة على المأساة ، ومأساة النص نفسه فهو يبحث بين الشواهد عن ماض مرعب ليفتح أبوابا لغد جميل ،هذه هي الرؤية التي تحكم هذا الديوان الجديد لأحمد حمدي ، والقراءة – هاهنا – تستدعي أن نقرأ الديوان من رؤية مغايرة ، تقبض على تحولات النص ، ولكن قبل ذلك سنبحث في عتبات النص في ديوان " أشهد أنني رأيت " ونقصد بذلك العنوان الذي يؤسس لهوية الديوان ونصوصه .

سميوطيقا العنوان :

يرى مايكل ريفاتير " أن الظاهرة الأدبية ليست إلا علاقة جدلية بين النص و القارئ"[5] وهذا يعني أن القارئ يعيد بناء النص وفق تصوره ، ومن ذلك أن القارئ قبل الوصول إلى الدلالة عليه أن يتجاوز مبدأ المحاكاة ، و يبدأ بحل شفرة القصيدة ، انطلاقا من القراءة الاستكشافية التي يتم من خلالها تفسير أولي للمعنى ومن بداية النص إلى نهايته، وفي مرحلة القراءة الاسترجاعية ، يقوم القارئ بعملية تأويل للنص .

ولا شك أن فعالية الذات المتلقي ، تقع على "العنوان" باعتباره أعلى اقتصاد لغوي ممكن ، وهذا ما يؤكد أن "العنوان" هو عتبة النص ، و لا يمكن أن نقرأ النص بمعزل عن "عنوانه" ولا "العنوان" عن نصه ، وإذا رجعنا إلى كلمة "العنوان" نجد أنها تعود في لسان العرب إلى مادتين مختلفتين هما :"عنن"و"عنا" فالمادة الأولى

"عنن"تذهب إلى معاني"الظهور" و"الاعتراض" ، بينما نجد المادة الثانية "عنا" تحيل إلى معاني "القصد" و"الإرادة"[6].

إن الدائرة الاتصالية بين المرسل والمرسل إليه ، تنكسر و تصبح جزأين يقوم كل منهما بذاته ، و هما : المرسل-الرسالة ، و الرسالة-المستقبل[7].

وتأسيسا على ذلك يتحول "العنوان" إلى رسالة صادرة من المنتج إلى المتلقي . وهذه الرسالة هي نص داخل نص ، و لكنه يحمل صفتي الظهور و القصد.

إن"العنوان" علامة من علامات النص ، ومن ثم فهو يخضع للتحليل مثله مثل النص الذي هو عنصر من عناصره ، و يحيل إلى معنى ما ، لا ندركه إلا من خلال قراءته من داخل السياق الذي أنتجه وورد فيه ، رغم أن "العنوان" يبدو مستقلا وظيفيا بوصفه رسالة ، وذلك نظرا للطبيعة اللغوية للعنوان ، إلا أنه له ظلال على مستويات النص .

وبالتالي فالعنوان لغة داخل اللغة ،"غير أن لغة العنوان –كما تبدو في ظاهرها- غير مشروطة تركيبيا بشرط مسبق ، و بالتالي فإن إمكانات التركيب التي تقدمها اللغة كافة قابلة لتشكيل "العنوان" دون أية محظورات ، فيكون "كلمة " و "مركبا وصفيا " و "مركبا إضافيا " كما يكون "جملة" فعلية أو اسمية [8].

فضاء الديوان :

قبل الخوض في دراسة التقنيات التي استخدمها الشاعر أحمد حمدي في تشكيل عتبات نصه بعنوان الديوان إلى العناوين الفرعية الأخرى ، أريد أن أقدم الديوان من جانبه الشكلي وما يحتوي بين دفتيه ، فعندما ننظر من الغلاف نجد أن العنوان "أشهد أنني رأيت" يقع بين لوحة تشكيلية فعبارة "أشهد أنني" فوق اللوحة ، بينما فعل "رأيت" تحت اللوحة ، التي تعبر عن الشهادة والرؤية معا . ويتضمن الديوان 38 قصيدة ، من بينها 06 قصائد عمودية ، من الناحية الزمنية تقع

القصائد بين تاريخين : 1970 و 1997. ويستند الشاعر في ديوانه إلى مقطع من القصيدة لمالك حداد ، الذي يقول فيه :

"في كل الدروب التي تقود إلى النهار
أراني أبحث عن اسمي ابدأ بين الشواهد
عجبا ...كيف يفتح الماضي المرعب أبوابا
لغد جميل؟
إني أحلم دائما بغد كالأساطير."

أريد أن أنطلق من هذا المقطع الشعري الذي اعتمده الشاعر أحمد حمدي فاتحة لديوانه ، ولا شك أن عنوان الديوان "أشهد أنني رأيت " لم يأتي اعتباطا فهو مبني بناء محكما فهو يعتمد فعلين بينما - الأنا- تقع بينهما ، فالشاعر شاهد على مرحلة ، و يعلن عن طريق نصه شهادة ، و هو في نصه يؤسس لرؤية ورؤيا – فهو رأى الواقع المر الذي تعيشه الجزائر ، وهذه الرؤية تؤدي إلى رؤيا الحلم ، ومن هنا تكون العلاقة بين العنوان والمقطع الشعري – الفاتحة لمالك حداد ، فالشاعر يبحث عن اسمه بين الشواهد ليقدم شهادة مصدرها الرؤية ، و يدرك في رحلة البحث أن الماضي المرعب بإمكانه أن يفتح أبوابا لغد جميل ، وتتحول الرؤية إلى حلم ، بغد كالأساطير ، ولكنه رغم ذلك يشبه الصباح فهو قريب ، في تداول الليل والنهار ، لذا كانت أول عتبة هو نص "هذا الصباح" فالعنوان نتيجة لتلك الرؤية التي أشرت إليها سابقا .

للجزائر أفتح هذا الصباح .
للجبال التي كتبت بالـــدم .
وارتدت حـــلـــة الموســـم .
للـــضـــياء الجمـــيـــل [9].

ومن ثم نلحظ أن العنوان أيضا هو مرتبط بالقصيدة حيث ورد ذكره حرفيا (للجزائر أفتح هذا الصباح). فالصباح مبعث النور ، ومن هذا النور تتشكل رؤية واضحة للأشياء والواقع .

والتي علمتني الشهادة .

في زمن للشـــدائـــد .

والمعجزات الكبـــيرة [10].

فالبلاد التي علمته الهوى والغناء والشهادة ، و من هنا تلتقي الرؤية الشهادة في النص الأساسي (أشهد أنني رأيت).

أشهد أنني رأيت أزهارا بلا مـــذاق .

. أشهد أنني رأيت أطفالا بلا أحداق .

أشهد أنني رأيت أنـــهارا بلا عنـــوان[11] .

أشهـــد أنني رأيـــت ما رأيـــت [12].

وبناء على ذلك تنقسم قصائد الديوان إلى قسمين : قسم متعلق بالشهادة والقسم الآخر متعلق بالرؤية ، وعندما نتعمق في عناوين القصائد نجد أنها عبارة عن بيت من القصيدة ، و من ثم ليتحول العنوان إلى تجربة و نص متميز عن نص القصيدة ، رغم أنه لا يمكن أن يكون منفصلا عنها ، وسأقدم نماذج على هذا التوجه في الديوان ، ففي قصيدة "وطن يتألم من رأسه" ، يقول :

وطني يتألم من رأسه .

هل أفصح عما في خلدي ؟

لا يجدي صوت من جسدي [13] .

و في قصيدة "عش الغراب " يقول :

على رأسه يتمترس عش الغراب .

و في محجريه شظايا الحزاب [14].

و نفس الشيء في قصيدة "الأساطير":

الأســـاطير ترفع رايتها .

والصـــواري .

الأســـاطير تلـــهـــث .

مثل الصواري [15].

وكذلك الأمر بالنسبة لقصائد أخرى ، لكن الملاحظ في القصائد التي على الشكل التقليدي يكرر العنوان في بيتين شعريي في بداية القصيدة ونهايتها ، مثل قصيدة "قدر على قمر" ، يقول:

قدر على قمر وشعلة نار مشبوبة في القلب والأشعار [16].

و في نهاية القصيدة يقول :

لم يبق من ألحانها نغم سوى قدر على قمر وشعلة نار [17].

والشيء نفسه يكرره في قصيدة "أيطيب القصيد من بعد مفدي ؟"

أي شعـــــــــر يحلو وأي تحـــد أيطيب القصيد من بعد مفدي ؟[18]

وها هنا الشعر ...هاهنا عرس مجد أيطيب القصيد من بعد مفدي ؟[19]

لا أريد أن أخوض في ضرب الأمثلة على ما سلف ذكره ؛ ولكنني أريد أن أشير إلى مسألة غاية في الأهمية أن " العنوان " في ديوان أحمد حمدي رغم أنه يتراوح بين المباشرة والرمزية ؛ إلا أنه في حقيقة الأمر يتأسس من رؤية تقليدية ، يعتمد فيها الشاعر في تشكيل عنوان قصيدته على البيتية ، فهو يأخذ شطرا من البيت ويجعله عنوانا لنصه الشعري .

وبناء على ما تقدم يمكنني القول أن عتبات النص في ديوان أحمد حمدي (أشهد التي رأيت) تتشكل انطلاقا من حدي الشهادة والرؤية ، لذا نلحظ أن كلمة

بعنفوان المجد والنصر المبين [25].

من أين يأتي الضوء .

في غسق الدجى [26].

♣♣♣

عبر بارقة صباح[27] .

♣♣♣

أشرقت .

نجمة في الصباح .

كالرجاء الجميل [28].

قدمت هذا العدد من الاستشهادات حتى نبين أن هناك علاقة وثيقة بين الشهادة والرؤية ، و أن الصباح يأتي بعد الليل ، والحلم جزء من الرؤية ، و كذا الشهادة ، و"الذات " المحصورة بين "أشهد" و"رأيت" هي التي تحقق هذا التفاعل ، أو هي الكيمياء .

و رغم أن العناوين كما بينت من قبل مباشرة و واضحة ، وذلك نتيجة لوضوح الرؤية ، على اعتبار أن النصوص من هذا الديوان هي صرخة الشاعر ، يخترق بواقع منهار .

وعلى الرغم من أن النصوص متباعدة في الزمن ، ولكنها تشكل رؤيا موحدة ، أحسن الشاعر في استخدامها بطرق مختلفة على أساس أن لكل نص شعري خصوصيته و عنوانه ، لكن هذا العنوان هو جزء من عنوان أكبر ، فهو علامة من علامات الرؤية / الرؤيا ، والشهادة / الواقع . وعندما نركب العناوين نتحصل على رؤيا كلية للديوان : "هذا الصباح ، أشهد أنني رأيت ، وطن يتألم من رأسه ،

عش الغراب ، جثة ، احتراق ، أي ستر ؟ ، كل شيء معلب للبيع ، القصيدة والقصد ، مرثية الحلم الجميل ، عبور جسر التنين ".

لاشك أن القارئ يدرك من خلاله أن الشاعر يتميز بوعي حاد ، يفقه ما يقول ، وعندما أشرت سابقا إلى الصنعة في شعرية أحمد حمدي ، كنت أقصد أنه يؤسس لنص حافل برؤى متعددة ، رغم أنه انتهج في بناء عتبات نصوصه منهجا مرتبط بالتقليدية ، و لكن هذا ليس عيبا في حد ذاته ، إذا استطاع الشاعر أن يجعل عناوين قصائد سلسلة من العلامة ضمن مسار نصه في الديوان .

الهوامش والمراجع

[1] – انفجارات ، (ط.1)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1977 م .

[2] – **قائمة المغضوب عليهم** ، (ط.1) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980م .

[3] – **تحرير ما لا يحرر** ،(ط.1) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 م .

[4] – **أشهد أنني رأيت** ، (ط.1) ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2000 م .

[5] – **سيميوطيقا الشعر** ، **دلالة** القصيدة ، في كتاب : مدخل إلى السيميوطيقا ، (ج.2) ، سيزا قاسم ، نصر أبو حامد ، **منشورات عيون** ، 1987 ، ص : 52 .

[6] –**ابن منظور** ،**لسان العرب** ، دار المعارف، مج :4 ،ص:18.

[7] –**محمد فكري الجزار** ، **العنوان و سيميوطيقا الاتصال الأدبي** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998 **القاهرة،ص:18**

[8] –**المرجع نفسه،ص:39**

[9] –**أشهد أنني رأيت، ص:07**

[10] – المصدر نفسه ، ص : 09 .

[11] – م ، ن ، ص : 11

[12] – م ، ن ، ص :12

[13] – م ، ن ، ص :14

14 - م ، ن ، ص :39

15 - م ، ن ، ص :40

16 - م ، ن ، ص :99

17 - م ، ن ، ص :100

18 - م ، ن ، ص :111

19 -م ، ن ، ص :114

20 - م ، ن ، ص :07

21 - م ، ن ، ص :15

22 - م ، ن ، ص :24

23 -م ، ن ، ص :27

24 -م ، ن ، ص :46/45

25 - م ، ن ، ص :47

26 - م ، ن ، ص :71

27 -م ، ن ، ص :72

28 - م ، ن ، ص :76